أسلوب الخطاب القرآني في سورة الإسراء دراسة موضوعية

د. صلاح علي مضعن المحمدي

الجامعة العراقية/كلية العلوم الإسلامية

Quranic discourse style in Surat Al-Isra Objective study

Dr. Salah Ali Mohammadi Amadan

Research summary

Praise be to God who created it and mushroom universe, and the creation of human and justice, religion and proceeded Ogmh, and sent down the Qur'an and disconnected.

And prayer and peace be upon God lowered from the balcony of the Koran on his heart to be a harbinger for the worlds and a harbinger, and calling to God with his permission and lamp illuminating, either:

The best of speech the word of God, and the best of guidance is the guidance of Muhammad and these two old guided the native nation, and survived for two times and in all other cases, it is stuck with them Rushd and unbend, and lost them both seduce and Hui.

If the Koran is the word of God, who revealed in outlining the word, and I can not style, Voeit eloquence rhetoricians, and disable the wisdom of the wise, and Obkmt eloquence orators, and challenged God by mankind and the jinn

So was the argument on the people in every age and Egypt, until God inherits the earth and them, and exactly this miracle that God saved ensure tweaking, and increase and decrease.

In light of the above studies it came to attach this interpretation of the Koran in library format, titled (Quranic discourse style in Surat Al-Isra objective study of the Koran), for things singled out, including:

(1)that Al-Isra integrated school, grew up in the light of the companions of Muhammad they came to the provisions of the comprehensive and ethics and orders and Noah can not find combined in Surat others.

(2) The Al-Isra, came to raise the nation to His Highness the ethics, and the virtues of business and high motivation.

(3) It's contractual, legislative and educational school, so it is no wonder to see the ethics of the first generation are the ethics of the Koran, which is the ethics of our imam and the imam of that generation Muhammad which was created by the Koran, and therefore led the whole world, not swords nor their money, but their morality derived from religion, and like them taken from the Book of their Lord and the Sunnah of their Prophet, and today our nation desperately needs to be a savior to them than they are hungry and where intake between her hands, thirsty and portable water over her appearance.

This and other invited me to what Drast Al-Isra objective, Vazmt to move forward in the output of some of the treasures of this Sura, where I did not find, according to my knowledge, a comprehensive explanation of this sura, standing with verses analyst and interpreter.

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأولين والآخرين وإمام المتقين.

أما بعد :

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وبهذين الأصلين اهتدت الأمة قديما، وهما سبيل نجاتها في سائر الأزمان والأحوال، فمن تمسك بهما رشد واستقام، ومن ضل عنهما غوى وهوى .

وإنّ القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله في أوجز لفظ، وأعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء، وأبكمت فصاحته الخطباء، وتحدّى الله به الإنس والجـــن:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

فكان بذلك حجة على الناس في كل عصر ومصر، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن تمام هذه المعجزة أنّ الله تكفّل بحفظه من التغيير والتبديل ، ومن الزيادة والنقصان﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [2].

وفي ضوء ما تقدم جاءت دراستي هذه لأرفقها في نسق مكتبة تفسير القرآن وهي بعنوان (أسلوب الخطاب القرآني في سورة الإسراء دراسة قرآنية موضوعية) ، وذلك لأمور اختصت بها منها :

أن سورة الإسراء مدرسة متكاملة، تربى في ضوئها أصحاب محمد ﷺ فإنها جاءت شاملة لأحكام وآداب وأوامر ونواه لا تجدها مجتمعة في سورة سواها .إن سورة الإسراء ، جاءت لتربي الأمة على سمو الأخلاق، وفضائل الأعمال وعلو الهمم .إنها مدرسة عقدية وتشريعية وتربوية، ولذلك فلا عجب أن نرى أخلاق الجيل الأول هي أخلاق القرآن، التي هي أخلاق إمامنا وإمام ذلك الجيل محمد ﷺ الذي كان خلقهُ القرآن ، ولذلك قادوا الدنيا بأسرها، لا بسيوفهم ولا بأموالهم، ولكن بأخلاقهم المستمدة من دينهم، ومثلهم المأخوذة من كتاب ربهم وسنة نبيهم، ﷺوأمتنا اليوم أحوج ما تكون إلى منقذ لها مما هي فيه جائعة والزاد بين يديها، عطشى والماء فوق ظهورها محمول .

١) سورة الإسراء لم تُبنَ بناءً قصصيّاً، ولا كثرت فيها القصص مثل سورة (الكهف) أو سورة (طه) ، ومع ذلك فهي حافلة بالخطاب الذي يشغل ثلاثة أرباعها ، وليس لورود طرف قصصي من تاريخ بني إسرائيل أو رفض إبليس السجود لأبينا آدم دور حاسم في ذلك .

٢) الخطاب في معظمه في هذه السورة (خطاب من الله تعالى) لمخلوقاته ، يشغل مساحة خمس وثمانين آية، من مجموع آيات السورة التي تعدّ إحدى عشرة آية ومئة ، معظم هذا الخطاب موجّه إلى النبي ﷺ، وبعضه موجّه إلى بني إسرائيل أو المؤمنين العرب أو الناس كافة أو المشركين أو الملائكة .

٣) يضاف إليه خطاب ثنائي بين الله تعالى وإبليس حوالي خمس آيات ، وآخر بين النبي موسى عليه السلام وفرعون في آيتين ، ومطالب مشركي مكة من النبي محمد ﷺ وتساؤلاتهم حوالي ست آيات ، وما تبقى من الآيات غير الحوارية ، وهو ما يشكل ربع السورة أي حوالي ست وعشرين آية.

٤) وهذه السورة – سورة الإسراء – تعالج قضايا وأمورا تسهم في حل كثير من المعضلات التي تواجهها الأمة اليوم .

هذا وغيره ما دعاني لدراست سورة الإسراء موضوعية ، فعزمت على المضي قدما في إخراج بعض كنوز هذه السورة، حيث لم أجد، حسب اطلاعي، تفسيرا شاملا لهذه السورة، يقف مع آياتها محللاً ومفسراً .

وختاما أسال الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم .

المقدمة

الحمد لله الذي فطر الكون وأبدعه، وخلق الإنسان وعدله، وشرع الدين وأحكمه، وأنزل القرآن وفصّله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٣] والصلاة والسلام على من شرّفه الله بإنزال القرآن على قلبه ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً،

أما بعد :

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وبهذين الأصلين اهتدت الأمة قديما، وهما سبيل نجاتها في سائر الأزمان والأحوال، فمن تمسك بهما رشد واستقام، ومن ضل عنهما غوى وهوى .

وإنّ القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله في أوجز لفظ، وأعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء، وأبكمت فصاحته الخطباء، وتحدّى الله به الإنس والجـــن: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[٤].

فكان بذلك حجة على الناس في كل عصر ومصر، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن تمام هذه المعجزة أنّ الله تكفّل بحفظه من التغيير والتبديل ، ومن الزيادة والنقصان ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٥].

وفي ضوء ما تقدم جاءت دراستي هذه لأرفقها في نسق مكتبة تفسير القرآن وهي بعنوان (أسلوب الخطاب القرآني في سورة الإسراء دراسة قرآنية موضوعية) ، وذلك لأمور اختصت بها منها :

١. أن سورة الإسراء مدرسة متكاملة، تربى في ضوئها أصحاب محمد ﷺ فإنها جاءت شاملة لأحكام وآداب وأوامر ونواه لا تجدها مجتمعة في سورة سواها .
٢. إن سورة الإسراء ، جاءت لتربي الأمة على سمو الأخلاق، وفضائل الأعمال وعلو الهمم.
٣. إنها مدرسة عقدية وتشريعية وتربوية، ولذلك فلا عجب أن نرى أخلاق الجيل الأول هي أخلاق القرآن، التي هي أخلاق إمامنا وإمام ذلك الجيل محمد ﷺ الذي كان خلقهُ القرآن ، ولذلك قادوا الدنيا بأسرها، لا بسيوفهم ولا بأموالهم، ولكن بأخلاقهم المستمدة من دينهم، ومثلهم المأخوذة من كتاب ربهم وسنة نبيهم، ﷺ وأمتنا اليوم أحوج ما تكون إلى منقذ لها مما هي فيه جائعة والزاد بين يديها، عطشى والماء فوق ظهورها محمول .
٤. سورة الإسراء لم تُبنَ بناءً قصصيّاً، ولا كثرت فيها القصص مثل سورة (الكهف) أو سورة (طه) ، ومع ذلك فهي حافلة بالخطاب الذي يشغل ثلاثة أرباعها ، وليس لورود طرف قصصي من تاريخ بني إسرائيل أو رفض إبليس السجود لأبينا آدم دور حاسم في ذلك .
٥. الخطاب في معظمه في هذه السورة (خطاب من الله تعالى) لمخلوقاته ، يشغل مساحة خمس وثمانين آية، من مجموع آيات السورة التي تعدّ إحدى عشرة آية ومئة ، معظم هذا الخطاب موجّه إلى النبي ﷺ، وبعضه موجّه إلى بني إسرائيل أو المؤمنين العرب أو الناس كافة أو المشركين أو الملائكة .
٦. يضاف إليه خطاب ثنائي بين الله تعالى وإبليس حوالي خمس آيات ، وآخر بين النبي موسىعليه السلام وفرعون في آيتين ، ومطالب مشركي مكة من النبي محمد ﷺ وتساؤلاتهم حوالي

ست آيات ، وما تبقى من الآيات غير الحوارية ، وهو ما يشكل ربع السورة أي حوالي ست وعشرين آية.

٧. وهذه السورة – سورة الإسراء – تعالج قضايا وأمورا تسهم في حل كثير من المعضلات التي تواجهها الأمة اليوم .

هذا وغيره ما دعاني لدراست سورة الإسراء موضوعية ، فعزمت على المضي قدما في إخراج بعض كنوز هذه السورة، حيث لم أجد، حسب اطلاعي، تفسيرا شاملا لهذه السورة، يقف مع آياتها محللاً ومفسراً .

منهج البحث :

١) قمت بتقسيم السورة كاملة، على شكل بابين وفصول .

٢) عزوت الآيات إلى سورها وأرقامها وأرقام كل آية بحسب ترتيبها في السورة.

٣) عزوت الأحاديث إلى مصادرها، مع بيان درجته من خلال حكم العلماء عليها.

٤) قمت بترجمة الأعلام المذكورين في البحث.

وجاءت دراستي للسورة بعد هذه المقدمة في مبحثين :

المبحث الأول: مفهوم الخطاب والتعريف بالسورة.

المطلب الأول: مفهوم الأسلوب والخطاب.

أولاً: تعريف الأسلوب.

ثانياً: تعريف الخطاب.

المطلب الثاني: التعريف بالسورة.

أولاً: مكية السورة ومدنيتها وعدد آياتها.

ثانياً: زمان نزول سورة الإسراء.

ثالثاً: سبب تسمية سورة الإسراء.

رابعاً: فضل هذه السورة.

خامساً: مناسبتها لما قبلها.

المبحث الثاني:الخطابات التي جاءت في السورة.

المطلب الأول: خطاب بين طرف واحد.

أولاً: كيف خاطب الله النبي نفسه.

ثانياً: كيف خاطب الله الأمة عن طريق النبي.

ثالثاً: كيف خاطب الله الملائكة.

رابعاً: خاطب الله للمشركين من خلال النبي.

خامساً: خاطب الله الناس كافة.

سادساً: خاطب الله لبني إسرائيل.

سابعاً: خطاب الله لنبيه لتلقيه حجج المجادلة.

المبحث الثاني: خطاب الثنائي بين طرفين.

أولاً: خطاب الله مع إبليس.

ثانياً: خطاب بين موسى وفرعون.

ثم ختمت البحث بخاتمة أوردت فيها أهم ما توصلت إليه ومن ثم كتفاً بالمصادر والمراجع التي أفاد البحث منها .

وأسال الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم .

المبحث الأول
مفهوم الأسلوب والخطاب والتعريف بالسورة.

المطلب الأول: مفهوم الأسلوب والخطاب.

أولاً: تعريف الأسلوب في اللغة:

هو في اللغة: وَيُقَال السّطرَ منْ النَّخيلِ وكلُ طريقً ممتدٌ، والأسْلوبَ: الطَّرِيق و الوَجهُ و المذْهب، والجمعَ أسالْيبَ[٦].

والأسلوب: الطَّرِيق وَيُقَال سلكت أسلوب فلَان فِي كَذَا طَرِيقَته ومذهبه وَطَرِيقَة الْكَاتِب فِي كِتَابَته والفن يُقَال أَخذنَا فِي أساليب من القَوْل فنون متنوعة والصف من النّخل وَنَحْوه أساليب[٧].

الأسلوب في الاصطلاح:وقد عرّف عبد القاهر الجرجاني الأسلوب بأنه: (الضرب من النظم والطريقة فيه)[٨]، أما عند حازم القرطاجني فإن مصطلح الأسلوب يُطلق على التناسب في التأليفات المعنوية، (فيمثل صورة الحركة الإيقاعية[٩]، للمعاني في كيفية تواليها واستمرارها، وما في ذلك من" حسن الاطراد و التناسب والتلطف في الانتقال عن جهة إلى جهة، والصيرورة من مقصد إلى مقصد)[١٠].

وحازم يجعل الأسلوب منصبًّا على الأمور المعنوية (التناسب فيها)، وجعلَه في مقابل النظم الذي هو منصب على التأليفات اللفظية، وهذا بخلاف نظرة عبد القاهر، حيث جعل النظم شاملاً لما يتعلق بالألفاظ والمعاني[١١]، وعرّفه ابن خلدون بأنه: (المنوال الذي ينسج فيه التراكيب او القالب الذي تفرغ فيه)[١٢] .

ومما يلفت الانتباه في تعريفات هؤلاء العلماء الثلاثة أن كلاًّ منهم نظر إلى الأسلوب من زاويةٍ معينة، فهو عند ابن خلدون مختص بصورة الألفاظ (القالب)، و عند حازم هو مختص بصورة المعاني، أما عند عبد القاهر فمفهوم الأسلوب ينسحب على الصورتين اللفظية و المعنوية من غير انفصالٍ بينهما، وهذه هي النظرة الأشمل للأسلوب.

ثانياً: تعريف الخطاب في اللغة.

إذا حاولنا تأصيل مفهوم الخطاب، فإننا سنعود إلى ما أنتجه تراثنا أولاً: بدءاً بالمعاجم الأساسية، إذ نجد (لسان العرب)، في تعريفه اللغوي يورد أن الخطاب هو مراجعة الكلام[١٣]، بين طرفين أو أكثر، بحيث يتم تبادل رسائل لغوية.

والْخطاب: (الْكَلَام وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز:﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[١٤]، والرسالة وَفصل الْخطاب مَا ينْفَصل بِهِ الْأَمر من الْخطاب وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾[١٥]، وَفصل الْخطاب أَيْضا الحكم بِالْبَيِّنَةِ أَو الْيَمين أَو الْفِقْه فِي الْقَضَاء أَو النُّطْق بأما بعد أَو أَن يفصل بَين الْحق وَالْبَاطِل أَو هُوَ خطاب لَا يكون فِيهِ اخْتِصَار مخل وَلَا إسهاب مُمل وتاء الْخطاب مثل التَّاء من أَنْت وكاف الْخطاب مثل الْكَاف من لَك وَالْخطاب المفتوح خطاب يُوَجه إِلَى بعض أولي الْأَمر عَلَانِيَة (محدثة)[١٦].

تعريف الخطاب اصطلاحاً:

نجده عند التهانوي حين عرف الخطاب: (بأنه توجيه الكلام نحو الغير للإفهام)[١٧]، و نجده كذلك عند أبي البقاء الكفوي في الكليات حين يقول: (الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا)[١٨].

من هذه التعاريف نستنتج أن التراث العربي تحسس أهمية الخطاب والدور التداولي الذي يعتبر أهم شروطه، مثلما نجد أسس النظريات اللسانية كامنة فيه، فإذا كان هذا الحقل الحديث اليوم قد اعتبر الجملة أصغر وحدات الخطاب، فإن الجرجاني منذ قرون يلمح إلى هذا المعنى بقوله بأن الكلام هو:(المعنى المركب الذي فيه الإسناد التام أو ما تضمن كلمتين بالإسناد)[١٩]؛

وهذا المعنى المركب له دلالات هي التي يتم تبادلها بين أطراف العملية التخاطبية التواصلية: كما يؤكد على ذلك النقد العربي الحديث الذي خرج من عصور الانحطاط، واحتك بالنقد الغربي في مدارسه المختلفة و بالاتجاهات الفكرية والفلسفية المواكبة لظهورها.

هكذا تتعدد التحديدات الخاصة بمفهوم الخطاب، خصوصا إذا استحضرنا الكم الهائل من التعريفات الصادرة عن النقاد، و التي تتسم بعدة سمات تتراوح بين التكامل و التنافر.

المطلب الثاني: التعريف بالسورة.

أولاً: مكية السورة ومدنيتها وعدد آياتها:

سورة الإسراء مكيّة وعدد آياتها هو مائة واحد عشرة آية، وقيل: مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيين، ومائة وعشرة عند الباقين، وسبب ذلك الاختلاف الذي وقع في المصاحف التي نسخت على عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ ، وأرسل بها الى الأمصار[٢٠].

ثانياً: زمان نزول سورة الإسراء:

سورة الإسراء مكية النزول، وهناك روايات تقول بان فيها آيات مدنيات[٢١]، من تلك الآيات:﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾[٢٢].

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو يحيى التميمي، حدثنا فضيل ابن مرزوق، عن أبي سعيد قال: لما نزلت: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾، داع رسول ﷺ فاطمة فأعطاها فدك، ثم قال أي البزار لا نعلم من حدث به عن فضيل بن مرزوق الا ابا يحيى التميمي وحميد بن حماد بن الخوار، وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده، لان الآية مكية، و(فدك) أنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتم هذا مع هذا؟ فهو إذا حديث منكر والأشبه انه من وضع الوضاع والله اعلم[٢٣].

وقال القرطبي: هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات: ومن الآيات التي قيل أنها مدنية[٢٤]، قوله عز وجل:﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾[٢٥]، نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء، وقوله عز وجل:﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾[٢٦]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾[٢٧].

والراجح ما ذهب أليه الجمهور، وهو قول الطبري وابن كثير والبيضاوي، وانه لايثبت أي شيء من ذلك، وان جميع هذه الآيات مكيات[٢٨].

ثالثاً: سبب تسمية سورة الإسراء:

سميت هذه بسورة الإسراء لو ورد قصة إسراء النبي محمد ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى فيها، حيث قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[٢٩]،وتسمى سورة بني إسرائيل لورود قصة تشردهم في الأرض مرتين بسبب فسادهم فيها، قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾[٣٠].

وتسمى سورة (سبحان) الذي هو علم للتنزيه فمن اظهر ما يكون فيه، لان من كان على غاية النزاهة عن كل نقص كان جديرا بان لا نعبد الا إياه، مستغن عن كل ما سواه لكونه متصفا بما ذكر)[٣١].

رابعاً: فضل هذه السورة.

وأخرج البخاري عن ابن مسعود ﷺ:(أنه قال في بني إسرائيل أي هذه السورة والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: هن من العتاق الأول، وهن من تلادي)[٣٢]، أي: فهي مشتركة في قدم النزول، وكونها مكيات، واشتمالها على القصص، والعتاق: جمع عتيق، وهو كل ما بلغ الغاية في الجودة، وهن من تلادي: أي مما حفظ قديما، والتلاد: قديم الملك وهو بخلاف الطريق[٣٣].

وكان مراد ابن مسعود ﷺ : إنهن من أول ما تعلم من القران الكريم، وان لهن فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم.

وأخرج الترمذي والحاكم وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها:(كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة ببني إسرائيل، والزمر)[٣٤].

خامساً: مناسبتها لما قبلها:

يظهر وجه ارتباطها بسورة النحل من عدة نواح عليها السلام: إنه تعالى بعد أن قال في آخر سورة النحل: إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فسر في هذه السورة شريعة أهل السبت وشأنهم، وذكر جميع ما شرعه لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﷺ أنه قال: (إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل)[٣٥].

بعد أن أمر الله نبيه ﷺ بالصبر على أذى المشركين في ختام سورة النحل بنسبته إلى الكذب والسحر والشعر، سلاه هنا، وأبان شرفه وسمو منزلته عند ربه بالإسراء، وافتتح السورة بذكره تشريفا له، وتعظيما للمسجد الأقصى الذي أشير إلى قصة تخريبه.

في سورة النحل أبان تعالى أن القرآن العظيم من عنده، لا من عند بشر، وفي هذه السورة ذكر الهدف الجوهري من ذلك القرآن.

في سورة النحل ذكر تعالى قواعد الاستفادة من المخلوقات الأرضية، وفي هذه السورة ذكر قواعد الحياة الاجتماعية من بر الأبوين، وإيتاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم من غير تقتير ولا إسراف، وتحريم القتل والزنى وأكل مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط، وإبطال التقليد من غير علم[٣٦].

المبحث الثاني
الخطابات التي جاءت في سورة الإسراء.

المطلب الأول: الخطاب بين طرف واحد.

اولاً: خطاب الله للنبي نفسهﷺ.

في هذا الخطاب يوجه الله رسوله ﷺ إلى الاتصال به، واستمداد العون منه، والمضي في طريقه، يعلن انتصار الحق وزهوق الباطل.

ففي تزكية النبي ﷺ يقول تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ ﴾[٣٧].

يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ الى الاتصال به، واستمداد العون منه والمضي في طريقه بان يقيم الصلاة مابين الشمس للغروب وإقبال الليل وظلامه، ويقرأ قران الفجر، ولهذين الأونين خاصيتهما، ولهما وقعهما العميق في النفس، فان مقدم الليل وزحف الظلام كمطلع النور وانكشاف الظلمة كلاهما يخشع فيه القلب، وكلاهما يخشع فيه القلب، وكلاهما مجال للتأمل والتفكر في نواميس الكون التي لاتفتر لحظة ولا تختل مرة، وللقران كما للصلاة إيقاعه في

الحس في مطلع الفجر ونداوته، ونسماته الرخية، وهدوئه السارب، وتفتحه بالنور، ونبضه بالحركة، وتنفسه بالحياة[٣٨].

وقد أعجبني في هذا المقام ما ذكره وهبة الزحيلي :(عد أن ذكر الله تعالى كيد الكفار واستفزازهم للرسول ﷺ ، وما كانوا يرومون به، أمره تعالى بالإقبال على عبادة ربه، وألا يشغل قلبه بهم، وقد تقدم القول في الإلهيات والمعاد والنبوات، فأردف ذلك بالأمر بأشرف العبادات والطاعات بعد الإيمان، وهي الصلاة، ثم وعده ربه في الآخرة بالمقام المحمود وهو الشفاعة العظمى باتفاق المفسرين، ولما أمره تعالى بإقامة الصلاة والتهجد ووعده بالمقام المحمود، أمره بأن يدعوه بما يشمل الأمور الدينية والأخروية بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي ﴾، والظاهر كما قال أبو حيان: أنه عام في جميع موارده ومصادره دنيوية وأخروية، والصدق هنا: لفظ يقتضي رفع المذام، واستيعاب المدح، ثم أبان الله تعالى أن ما أنزل عليه من القرآن فيه شفاء النفوس والقلوب من الداء الحسي والمعنوي وهو مرض الاعتقاد، ثم عرض بما أنعم به، وما حواه من لطائف الشرائع على الإنسان، وإعراضه عنه تكبرا، ثم رد على اليهود والمشركين المعرضين عن الإيمان، السائلين عن الروح تعنتا وتعجيزا)[٣٩].

ولابد للمسلم العادي أيضاً أن ينتفع من هذه التوجيهات الموجهة لنبيه أيضاً، وكان وجه الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أيضا لمكانة المأمور به وهو الصلاة[٤٠].

وجاء في تثبيت النبي ﷺ نفسياً قوله تعالى :﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾[٤١].

جاء الخطاب في هذه الآيات فيه أخبار عن تأييد الله تعالى لرسوله ﷺ، وتثبيته، وعصمته وتولي أمره وحفظه، فان المشركين لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم، وقوة شكيمتهم كادوا أن يفتنوه، ولكن عناية الله وحفظه هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة الى الله الذي لا يثبت فيه احد غيره[٤٢].

ويقول صاحب الظلال:(والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها، فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل، لا يمكن أن يكون مؤمنا بدعوته حق الإيمان، فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر، وليس فيها فاضل ومفضول، وليس فيها ضروري ونافلة، وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه، وهي كلّ متكامل

يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه، كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره! وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا سلموا في الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها! والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة، والله وحده هو الذي يعتمد عيه المؤمنون بدعوتهم، ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة، فلن تنقلب الهزيمة نصرا)[٤٣].

يقول الدكتور محمد محمود حجازي في قوله تعالى:﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾، وفيها إشارة إلى أن التهاون في شأن الدين وأحكامه خطر وأى خطر!!! وعليه عذاب مضاعف في الدنيا والآخرة، فيا ويلنا مادمنا نتهاون في شأن الدين وحكمه، وعلى المؤمنين جميعا إذا قرءوا هذه الآيات أن يملؤوا قلوبهم خشية وخوفا وتصلبا في دين الله، ولقد صدق رسول الله في قوله: «اللهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[٤٤].

وكانت الحكمة في هذا الخطاب الخاص بالنبي ﷺ ، هو أن الأنبياء عليهم السلام معصومون بحفظ الله تعالى لهم، وهم في الوقت نفسه مكلفون من الله بتكاليف تليق بنبوتهم والمهمات الثقيلة الموكلة إليهم، لأنهم الرمز والقدوة وصفوة البشر في خلقه، لذلك كان التهديد بالمخالفة خطاباً شديداً: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾[٤٥]، وإذا كان خطاب النبي ﷺ المعصوم بمثل هذه اللهجة، فما موقع ذلك من نفس الإنسان العادي.

ويبدو لي كان انسجام الخطاب مع موضوع السورة ، ألا وهو شخص الرسول ﷺ، فكان الخطاب في معظمه موجهاً للرسول ﷺ، إضفاء الجدية والهيبة والجلال على السورة بأسرها، فضمير المخاطب الفرد الذي كان يخص النبي محمداً ﷺ ، يحسه القارئ اليوم أنه يخصُّه هو، وأن المخلوق أيّاً كان، حين يعلم أن الله تعالى نفسه يخاطبه، لا بد أن يستشعر هذه المعاني الجليلة في نفسه.

ثانياً : خطاب الله للأمة عن طريق النبي ﷺ.

باستقراء آيات القرآن الكريم، نجد أن الله تعالى قد وجَّه الخطاب لعموم الناس في غير موضعٍ من القرآن، وكلّ خطاب فيه له هدفه ومقاصده، ومجموع سياق هذه الآيات الواردة في

خطاب النَّاس عشرون موضعًا، إلاَّ خمسةَ مواضع منها، ثلاثة منها سياق خطاب الله للنَّبـــي ﷺ لدعوة النَّاس إلى اتّباعه والإيمان برسالته.

وقد جاء بعض هذا الخطاب جاء بضمير المخاطب الفرد،(الكاف – أنت)، والذي ظاهره يخص الرسول ﷺ ، وبعضه الآخر جاء بضمير المخاطب الجمع،(كُم – أنتم)، والـــذي يشـــمل الصف المؤمن كله، مثل آيات التكاليف:﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾[٤٦].

فان الله أنهى أردته التكلفية بقضاء مبرم تفسيره إن لا تعبدوا الا إيـــاه، أي: اجعلـــوا كـــل عبادتكم محصورة به ومقصورة عليه، وهذا الخطاب موجه لكل الموضوعين في الحياة الـــدنيا موضع الامتحان، مع خطاب إفرادي يخاطب به كل واحد منهم دلـــت عليـــه عبـــارة: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾، بالخطاب الفردي، وقد اختير هنا أسماء الله اسم،(رَبّ)، لان وحدانية الربوبية لله عـــز وجل تستلزم عقلا وحدانيته في ألهيته، فلا معبود سواه.

إذاً فوجه الخطاب بقوله:﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ إلى نبي الله ﷺ ، ثم قال :﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ، فرجع بالخطاب به إلى الجميع، ثم صرف الخطاب بقوله:﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ﴾ ، إلى إفراده به، والمعني

بكل ذلك جميع من لزمته فرائض الله عز وجل، أفرد بالخطاب رسول الله ﷺ ، أو عم به هو وجميع أمته٤٧.

ولقد ذهب المفسرون إلى توجيه ضمير المخاطب المفرد في معظم هذه الآيات إلى أن المقصود بها مجموع الأمة وليس النبي وحده عليه السلام، ويقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ، قال ابن عباس وقتادة: والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فانه صلوات الله عليه وسلامه معصوم[٤٨]، وفي ذلك أدب مع الرسول ﷺ ، كما فيه إدراك للمستوى البلاغي في الآيات أيضاً، على طريقة البيان العربي والمثل المشهور: (الكلام لكِ فاسمعي يا جارة).

ومن القرائن التي تؤكد هذا الفهم أن الآيتين اللتين تطالبان فرداً مسلماً بإكرام الوالدين: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[٤٩]، نزلتا وبقية آيات السورة، والنبي ﷺ الكريم يتيم، أبوه وأمه متوفيان، فالخطاب في النتيجة للمسلمين جميعاً[٥٠].

فان التضجر منهما أو احدهما في حالة الكبر وكثرة المطالب والاعتراضات في الصغائر، وكثرة الأوامر والنواهي، بتوجيه كلمة،(أفّ)، ومثل (أفّ)، ما يساويها من الكلام المؤذي لنفس الوالدين.

وكلمة(أفّ) اسم فعل مضارع بمعنى (أتضجر)، وفيها عشرة لغات، فقال الله عز وجل خطابا للولد ذكرا كان أم انثى[٥١]:﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾.

وتوجيه القول الكريم لهما، وهو القول الذي فيه تكريم للمخاطب ورفع من شأنه، وإرضاء لنفسه، فقال الله عز وجل خطابا للولد:﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾، أي: وقل لهما قولا فيه تكريم لهما، وتعظيم لفضلها ومنتهما فيما تحملا منه عناء تربية وإحسان منهما إليك.

فان الغاية من التذلل لهما، والتواضع بين أيديهما، تخفيفاً على أنفسهما من مشاعر الضعف والتناقض في مختلف القوى، وهي مشاعر غير سارة بعد ما كانا عليه في شبابهما وكهولتهما من قوة ونشاط وحيوية، إذ يجدان في ولدهما ما فقداه في أنفسهما، فقال عز وجل للولد:﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾، في هذه العبارة تشبيه التذلل للوالدين بتذلل الطائر حين يخفض جناحه منكسرا لفراخه أو لزوجه أو لغيرهما، ولكن اضمر التشبيه، فلم يذكر لفظ المشبه به، وإنما كني عنه بشيء من صفاته، وهو الجناح، وأضيف هذا المكنى به الى المشبه[٥٢].

وكانت الحكمة في تنويع الخطاب بين المفرد والجمع في البلاغة معلومة، وقد أدرج البلاغيون هذا التنقل بين خطاب المفرد والجمع أو العكس في باب (الالتفات)، يضاف إلى ذلك حكمة أعمق وأبعد، ألا وهي استشعار الفرد المسلم أنه مخاطب خطاباً مباشراً بضمير المفرد، وفي ذلك ما فيه من البلاغة والتأثير البليغ أيضاً.

ثالثاً: خطاب الله للملائكة.

يأتي خطاب الله للملائكة فيه تذكير لبنى آدم بما جرى بين أبيهم وبين إبليس، ليعتبروا ويتعظوا، ويستمروا على عداوتهم لإبليس وجنده[٥٣]، بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾[٥٤].

فان في خطاب الله عز وجل فيه لقطة من أباء إبليس أن يسجد لآدم، وذريعته في رفضه أن يسجد له، وإعلانه بوقاحة ألزم نفسه بان يغوي ذرية آدم، سائقاً لهم الى شقائهم الأبدي، إذا أخره ربه ولم يمته الى يوم القيامة.

وهذه القضايا التي نتحدث بها، هي من الأحداث التي جرت، عندما قال الله للملائكة اسجدوا لآدم، بعد أن قالوا: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[٥٥]، وبعد أن أجرينا بين آدم وبين الملائكة مباراة العلم، فسجدوا كلهم جمعينا الا إبليس، فقد كان من الجن ولم يكن من الملائكة، ففسق خارجا عن أمر ربه، إذ أمره بالسجود مع الملائكة[٥٦].

ولم يزد هذا الخطاب عن عبارة واحدة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾[٥٧]، وهو تعبير كافٍ للدلالة على نفاذ قوله تعالى: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[٥٨]، بقدر ما هو معبر عن طبيعة الملائكة المطيعة المستسلمة، مقارنة بغيرهم من المخلوقات العاصية بدءاً بإبليس وحزبه الذين يجادلون ويماحكون، ثم إن السياق لا يحتاج للتوسع في أخبار الملائكة والعالم الغيبي الذي خوطبوا فيه، ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾، عبارة موجزة لكنها مكتنزة بكل هذه المعاني وسواها[٥٩].

عندما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح، أمر ملائكته بالسجود له، وكان إبليس من الجن، وليس من الملائكة، وإنما دخل في خطابهم لتوسمه بأفعال الملائكة وتشبهه بهم وتعبده وتنسكه، لكن حين أمروا بالسجود وسجد الملائكة، لم يسجد إبليس اللعين: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾[٦٠].

وقال الطبري: إن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم، وهم اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ مع علمهم بنبوته، ومع قدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم٦١.

وجاء خطاب الله عز وجل كان حكاية لمعنى ما قاله إبليس في بعض مواقفه: ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾[٦٢]، فان الاستفهام استنكاري فيه معنى الكبر العنصري، افتخاراً بالنار التي خلق منها، واحتقاراً للطين الذي خلق منه آدم٦٣.

ويظهر كما سبق بيانه في التدبر التكاملي أن إبليس قال هذا الكلام في نفسه، موجها خطابه لربه حين أبى أن يسجد لآدم، قول الله عز وجل حكاية لمعنى ما قاله إبليس بعد جلسات محاكمته في حوار جرى بينه وبين ربه، كما ظهر لي في التدبر التكاملي.

رابعاً: مخاطبة الله المشركين من خلال النبيﷺ.

كان خطاب الله سبحانه في كتابه العزيز لأهل الكتاب ودعاهم إلى اتّباع الهدى والحق، وإلى الحكم بما أنزل الله، وإلى الإيمان برسالة النَّبي ﷺ ومتابعته، وكذا خطابه لسائر الكفَّار والمشركين إلى معرفة الله وحْده وعبادته سبحانه.

من خلال ذكر القران لعديد من المخاطبات سوف نتعرف على نفسيات المشركين القلقة، وطباعهم المنحرفة، وأسئلتهم المتعنتة، بما يضعف دعاواهم، ويسقط حججهم، ويضعهم أمام الحقائق والجادة السوية إن كانوا يطلبونها. مما نتعرف عليه إساءة الأدب في استماعهم للقرآن الكريم، حين يتخذون موقفاً مسبقاً بالرفض، قبل السماع للهدى والبينات التي ترد فيه: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾[٦٤]. في هذه الآيات بيان صفات التي تتصف بها على التوزيع زمر أئمة المشركين، في مكة وما حولها أبان التنزيل، انصراف نفوسهم عن استماع القران انصرافا كلياً، وهذه الصفة تظهر لدى زمرة منهم.

تدل تلك الصفة قول الله عز وجل خطاباً للرسول ﷺ ويلحق به دعاة أمته: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾.

إن المتأمل لهذه الآيات يجد من خلال النبي ﷺ يخاطب المشركين جعل على قلوبهم أغطية، بحيث لا يتسرب إليها فهم مدارك القرآن ومعرفة أسراره وغاياته، وجعلنا في آذانهم ثقلا، أو صمما يمنع من سماع الصوت، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حفهم الله به، فعبر

عن كثرة ذلك وعظمه بأنهم بمثابة من غطي قلبه، وصمت أذنه، والإضلال بسبب الضلال الذي سلكوه، وساروا في فلكه بغيا وعناداً٦٥.

يخاطب الله تعالى الرسول ﷺ انك إذا قرأت القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالبعث، ولا يقرون بالثواب والعقاب جعلنا بينك وبينهم حجابا يمنع قلوبهم عن أن تفهم ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به، عقوبة منالهم على كفرهم وتدسيتهم لأنفسهم، واجتراحهم الجرائر والمعاصي التي تظلم القلوب، وتضع عليها الأغشية، وتستر عنها فهم حقائق القرآن ومراميه، وأسراره وأحكامه وحكمه، ومواعظه وعبره٦٦.

وقد كرم الله رسوله بقوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾، فالمعنى في هذه الآية انظر يا محمد ﷺ بفكرك الذي لا تحتاج معه الى تأمل وتدقيق وتعميق، متعجبا مستنكرا كيف اصطنعوا كاذبين مفترين لك أوصافا، يكشف الفكر القريب بطلانها، لمنافاتها لصفاتك العظيمة التي تتحلى بها، ويدركها كل فكر، ولو لم يكن فطنا ولا المعيا، ولا باحثا متعمقا، ومعلوم أن الخطاب للرسول خطاب لكل ذي نظر فكري٦٧.

كما نتعرف على تجاوزهم الحد في طرح الأسئلة، وادّعائهم العلم، حين يسألون عن (الروح) ، وهي من أمور الغيب التي يعْيَى الفكر البشري بها: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [٦٨].

وهذا الخطاب كان متضمن لردع من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ ﴾ أي: من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه٦٩.

وفي تعداد طلباتهم المتعنتة يقول تعالى :﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا

أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[٧٠].

بعد خطاب الله المشركين وتحديه لهم بان يأتوا بمثل هذا القران، وبعد ما ألزمهم الحجة وغلبوا على أمرهم، ببيان أعجاز القران، وظهر عجزهم، اخذوا يتعللون ويقترحون آيات أخرى تعنتاً وحيرة، فقالوا ما ذكره عنهم:﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾[٧١].

كان هذا قول نفر من زعماء مكة منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام وآخرين، قالوا لرسول الله ﷺ لن نصدق برسالتك حتى تخرج لنا الأرض ينبوعا يتدفق، وهو العين الجارية، أو يكون لك بستان من نخيل وأعناب، وطلبوا من هذه الآيات القرآنية ما ورد في النص القرآني المتقدم، فقال لهم رسول اللهﷺ: ما بهذا بعثت، وقال ما جاء في القران:﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾، فلست اقدر على طلبكم المعجزات، والله سبحانه هو القادر، وقد أيدني بمعجزة القران، وهي المعجزة الباقية الخالدة)٧٢.

ومع ذلك يخيّرهم الله تعالى أخيراً بين الإيمان والكفر، لكنه تخيير خطير، ينطوي على سوء المصير إن لم يكن مسدداً : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[٧٣]، وهنا تعريض بجهلهم، وضرب المثل لهم بعلماء أهل الكتاب الذين يعدّ إيمانهم به حجة على الآخرين .

قد استئناف خطاب للنبيء ﷺ ليلقنه بما يقوله للمشركين الذين لم يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله، فإنه بعد أن أوضح لهم الدلائل على أن مثل ذلك القرآن لا يكون إلا منزلا من عند الله من قوله:﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[٧٤]، فعجزوا عن الإتيان بمثله، ثم ببيان فضائل ما اشتمل عليه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ ﴾[٧٥]، ثم بالتعرض إلى ما اقترحوه من الإتيان بمعجزات أخر، ثم بكشف شبهتهم التي يموهون بها امتناعهم من الإيمان برسالة بشر، وبين لهم غلطهم أو مغالطتهم، ثم بالأمر بإقامة الله شهيدا بينه وبينهم، ثم بتهديدهم بعذاب الآخرة، ثم بتمثيل حالهم مع رسولهم بحال فرعون وقومه مع موسى وما عجل لهم من عذاب الدنيا بالاستئصال، ثم بكشف شبهتهم في تنجيم القرآن أعقب ذلك بتفويض النظر في ترجيح الإيمان بصدق القرآن وعدم الإيمان بقوله:آمنوا به أو لا تؤمنوا للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند الله تعالى، فالأمر في قوله: ﴿ آمِنُوا ﴾، للتسوية، أي إن شئتم[٧٦].

ويبدو ان غلبة هذا النوع من الخطاب على أنواع الخطاب الأخرى، أي الخطاب من طرف واحد، والسامع صامت لا يجيب ، وفي صمت النبي ﷺ على سماع خطاب الله وصمت المؤمنين استسلام واطمئنان وأدب وعبودية، كلها تليق بجلاله وهيبته، أما صمت المشركين فقد تعني إخفاقهم وانقطاع حجاجهم، أو جحودهم وإنكارهم. تعدد مستويات هذا الخطاب، فهو حيناً يخاطب النبي ﷺ نفسه مباشرة لتزكيته وتثبيته، أو لتلقينه الحجج، وأحياناً يقصد إلى مخاطبة الصف المسلم أو المشركين.

خامساً : خطاب الله الناس كافة.

قد جاء هذا الخطاب بصيغة المفرد انسجاماً مع إشعار الفرد بالمسؤولية، وعرضه على ربه فرداً وحيداً :﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [٧٧].

يخاطبه الله تعالى الناس في ويقول حسبك اليوم نفسك عليك حاسبا يحسب عليك أعمالك، فيحصيها عليك، لا نبتغي عليك شاهدا غيرها، ولا نطلب عليك محصيا سواها[٧٨].

وبعد أن يعطى كتابه المشتمل على صورة كاملة لحياته في رحلة امتحانه، يقال له من قبل من سلمه الكتاب من الملائكة، يقال له من قبل من سلمه الكتاب من الملائكة، أقرأ أنت كتابك، وحاسب نفسك على ما كسبت بإرادتك في الحياة الدنيا، كفى بنفسك المفطور على الصدق والأمانة اليوم حسيبا على ذاتك، بشان ما قدمت في رحلة امتحانك، ولو جادل لسانك، ولو كذبت وألقيت معاذيرك طامعا بان تخفف عن نفسك ستعترف بكل ما هو مسجل عليك في كتابك، أما ما هو لك من صالحات، فستجده مضاعفا أضعافا كثيرة، وأما ما هو عليك من سيئات فلا تجد في شيء منه ظلما لك[٧٩].

كما يكون بضمير الجمع:﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴾ [٨٠].

من ثم ينتقل فيعرض مشهد الفلك في البحر نموذجاً للحظات الشدة والحرج، لان الشعور بيد الله في الخضم اقوي واشد حساسية، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبون بهذه النقطة على كف الرحمن.

كان خطاب الله للناس في هذه السورة ومحورها الأساسي هو التوحيد، فتتابع ذلك واخبرهم فقال:﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ ﴾، إن ربكم هو الذي يستحق العبادة وحده، هو الذي يسير السفن الكم في البحر يدفعها بقوة الرياح وتيار الماء أو قوة البخار أو الطاقة الكهربائية لنقل الأشخاص بين بلاد الدنيا، وطلب الرزق من فضل الله، وانتم ايها المشركون امركم عجيب إذا مسكم الضر، واضطرب بكم البحر، وعدا عل سفنكم هوج الرياح، فنخلع قلبكم من خوف الفرق المحقق، إذا حصل هذا ضل من تدعونه من الإلهة الا الله، ولم يدر بخلدكم ذكر واحد منهم، فإنكم لا تذكرون سوى الله وحده، فلما كشف الضر عنكم ونجاكم الى بر السلامة أعرضتم وكفرتم وصرتم تدعون غيره معه، وهذا حال الإنسان:﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾[٨١].

وجاء خطاب الله تعالى للناس في قوله :﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾، أفأمنتم وقد نجاكم من البحر وصرتم في البر ان يرسل عليكم ريحا حاصبا تصيبكم بالحصباء؟ فانتم تحت قبضته في كل مكان في البر والبحر، وان لم يصبكم من أسفل أصابكم ان شاء من فوقكم كما جاء ذلك في سورة الأنعام:﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[٨٢].

بل أأمنتم وقد نجاكم من مخاطر البحر أن يعيدكم فيه تارة أخرى، بان يهيئ لكم أسباب ركوبه مرة ثانية فيرسل عليكم وانتم في سفن من الريح الشديد فتكسر كل ما يقابلها، فيغرقكم بما كفرتم، ثم لا تجدوا لكم بسبب هذا تبيعا علينا يطلب الثأر منا، كما ورد في سورة الشمس:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾[٨٣]،والتبيع: هو الناصر والمعين[٨٤].

يحمل تعداد نعم الله عليهم، وفي الوقت نفسه يكشف عقوقهم لهذه النعم ، كما يحمل تعريضاً بانحرافهم ، بما يستجيش وجدانهم إلى الاستقامة ، وإلى شكر المنعم ، إيماناً به واعترافاً بفضله الواسع عليهم ، وهي استجاشة قائمة على لمس أوتار النفس البشرية في لحظات حاجتها إلى بارئها أشد الحاجة ، وفيها تكون النفس الصافية مهيأة للاستجابة .

مزية خفية يدركها المتذوقون اللماحون، ألا وهي برهان على صدق هذا القرآن، وأنه من عند الله ، الذي هو المتكلم أو صاحب الخطاب الأول في السورة، فضلاً عن البراهين الأخرى .

سادساً: خاطب الله لبني إسرائيل:

هو في الحقيقة خطاب تاريخي، جاء في كتاب الله في الزمن الماضي، أي قبل بعثة النبي محمد ﷺ، ولا يُقصد به مباشرةً بنو إسرائيل في عهده: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[٨٥]، في هذه الآيات قد جاء خطاب عن أحوال بني إسرائيل وتاريخهم القديم، ومضمون الخبر: أن الله خاطبهم في التوراة على لسان موسىعليه السلام، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم سيفسدون في الأرض التي يحلون فيها مرتين، ويخالفون مخالفتين: مخالفة ما جاء في التوراة وتغييرها، وقتل بعض الأنبياء مثل أشعيا وزكريا ويحيى، ويتكبرون عن طاعة الرسل، ويطلبون في الأرض العلو والفساد، ويظلمون من قدروا على ظلمه، وهذا مطابق لما هم عليه الآن[٨٦].

وكان المقصود في هذه الآيات أشياء منها: قدرة الله الكبيرة على تصريف القوانين والمخلوقات بحسب مشيئته: ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ ، ما قضاه الله تعالى كائن، وما وعد به ناجز، والإيمان بذلك واجب، وهذا فيه ترهيب لمشركي مكة وسواهم[٨٧].

وكان جوب الرجاء في الله وهو انتظار الفرج والخير منه وإن طال الزمن، طمأنة النبي محمد ﷺ والصف المسلم إلى أن الغلبة للحق على الباطل، كما يشهد تاريخ بني إسرائيل[٨٨].

وجاء تأكيد العدل الرباني في **(قانون)** المحاسبة على العمل، لا على الحسب أو النسب أو العرق مما يظنه البشر شيئاً يعتدُّ به: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ ، ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[٨٩]، فإذا قيل هذا الكلام، ونفِّذ في بني إسرائيل وهم أهل كتاب فمن باب أولى أن يُنفَّذ في غيرهم أيضاً مثل مشركي مكة٩٠.

والانسجام مع خطاب الله تعالى أنه هو الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأنه هو الذي آتى موسى الكتاب أي التوراة فهو تعالى المتفضل على محمد ﷺ

وعلى أمته بالإسراء به والمعراج :﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[٩١].

والانسجام مع دعاء الذين أوتوا العلم من قبل القرآن، الذين يرد دعاؤهم في آخر السورة إيماناً بنبوة محمد ﷺ ، ففي دعائهم إشارة إلى وعد الله النافذ: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[٩٢].

يلفت نظرنا في بداية هذا الخطاب تعبير:﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾[٩٣]، وفي خطاب الله للنبي محمد ﷺ في التكليفات:﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾[٩٤]، الوحدة في الصيغة التعبيرية بما يوحي بوحدة الذي (قضى)، وبالانسجام بين أجزاء السورة وتماسكها، فضلاً عن وحدة الرسالة، ووجوب سريان هذا (القضاء)، وهي لطيفة من لطائف التعبير القرآني المعجز.

وتكون العبرة في سرد خطاب وقائع التاريخ الإسرائيلي في القرآن واضحة، وهي أن التنكيل والعذاب شأنهم في الدنيا إذا أدمنوا الفساد والإفساد، والإنقاذ والرحمة كغيرهم يشملهم إذا استقاموا على طاعة الله والتزموا أوامره.

سابعاً : خطاب الله لنبيه لتلقيه حجج المجادلة.

كان من الطبيعي أن يدافع الله تعالى عن نبيه ﷺ بأن يمدده بالبراهين التي ترد أباطيل المشركين، وتقمع شكوكهم وتَخَرُّصاتهم، سواء ما يتعلق بعقيدة التوحيد، أو البعث بعد الموت، أو طبيعة النبي البشرية، أو إحكام القرآن من عند الله، أو حدود المسؤولية الفردية والجماعية .

وجاء خطاب الله تعالى في جلاء التوحيد ونفي الشرك بقوله تعالى:﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾[٩٥].

كان خاطب الله للرسول ﷺ قل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله، ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله، وهي الأصنام والأنداد، هل يجيبونكم، وارغبوا إليهم حين وقوع الضر بكم من فقر ومرض وقحط وعذاب ونحوها، وانتظروا هل يستطيعون كشف الضر عنكم أو تحويله أو تبديله من مكان أو من واحد إلى آخر؟ إنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فلا يقدرون على ذلك لغيرهم، وإنما الذي يقدر عليه هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر، وقال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيراً، وأولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة هؤلاء

الذين عبدتموهم من دون الله كعزير والمسيح يدعون ربهم، يقصدون ويطلبون التوسل إليه والتقرب منه بالطاعات والقربات، ويخصونه بالعبادات، والوسيلة: هي القربة[٩٦].

وخطاب الله تعالى عن عقيدة البعث بعد الموت يقول تعالى:﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَينْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾[٩٧].

قد أمر الله بخطابه لرسولهِ ﷺ أن يجيبهم، ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديداً، على أي حال كانوا، عظاماً أو رفاتاً أو حجارة أو حديداً أو خلقا مما يكبر في صدورهم فقال:﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾، أي قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يستبعد عندكم قبوله للحياة كالسموات والأرض والجبال، فإن الله لا يعجزه إحياؤكم لتساوى الأجسام في قبولها الأعراض المختلفة، فكيف إذا كنتم عظاما بالية، وقد كانت قبل حيّة، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد؟.

مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها، فإن قدرته تعالى لا تقصر عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوتة وقد كانت غضة موصوفة بالحياة قبل والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد[٩٨].

وقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل، مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت، وطبيعة البعث والحشر، ولقد عرضها القرآن الكريم في هذا الضوء مرات، ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام:﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ وذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلا ثم كانوا، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى، وأنه لا شيء أما القدرة الإلهية أعسر من شيء، وأداة الخلق واحدة في كل شيء: ﴿ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، فيستوي إذن أن يكون الشيء سهلا وأن يكون صعبا في نظر الناس، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه٩٩.

وكان خطاب الله في الرد على ذلك التعجب: ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَينْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾.

وقال الطبري رحمه الله: فان العظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة والحديد والحجارة أبعد عن الحياة، فيقال لهم: كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر أو غل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة، فسيبعثكم الله[١٠٠].

وبذلك وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر ولكنه قول للتحدي، وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر، وفي هذا إيماء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر! ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾؟ من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتا وعظاما، أو خلقا آخر أشد إيغالا في الموت والخمود؟ ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، وهو خطاب فيه رد يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح، فالذي أنشأهم إنشاء قادر على أن يردهم أحياء، ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون: ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾، ينغضونها علوا أو سفلا، استنكارا واستهزاء: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾: استبعاداً لهذا الحادث واستنكارا، ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ ، فالرسول ﷺ لا يعلم موعده تحديدا. ولكن لعله أقرب مما يظنون. وما أجدرهم أن يخشوا وقوعه وهم في غفلتهم يكذبون ويستهزئون! ثم يرسم مشهدا سريعا لذلك اليوم: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾، وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له، وقد قاموا يلبون دعوة الداعي، وألسنتهم تلهج بحمد الله، ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب! وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون اليوم كله وينكرون الله، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا: الحمد لله، الحمد لله! ويومئذ تنطوي الحياة الدنيا كما ينطوي الظل: ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾[١٠١].

ويظهر في تصوير الشعور بالدنيا على هذا النحو يصغر من قيمتها في نفوس المخاطبين، فإذا هي قصيرة قصيرة، لا يبقى من ظلالها في النفس وصورها في الحس، إلا أنها لمحة مرت وعهد زال وظل تحول، ومتاع قليل.

وخطاب الله تعالى عن طبيعة الرسول ﷺ البشرية، لا الملائكية، كما يشتهون، أو يماحكون، يقول الله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾[١٠٢]، فان عموم الناس من أهل مكة، فهم المخاطبون مباشرةً بهذا حينما جاءهم الوحي من عند الله بواسطة رسوله محمد ﷺ ،

وبين ذلك لهم وأرشدهم أليه، وإن العادة في الرسل أن يُبعثوا من بين البشر الذين يعيشون مع البشر، وليس من الملائكة الذين لا يعيشون عادةً مع البشر، وهذا الدين يأخذ بالعقل والإقناع لا الخوارق، وعلى كل حال فإن الله تعالى يشهد لنبوة محمد، وهو خير الشاهدين[١٠٣].

يبدو إنه لو كان في الأرض ملائكة يمشون عليها مطمئنين فيها، كما أنتم أيها البشر فيها، لنزلّنا عليهم من عالم السماء رسولا من جنسهم، وأنتم البشر رسولكم منكم، لكن يمكن أن يكون البشر رسولا لغير البشر، فإن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن لأنه يمكنهم تلقي الوحي عنه وفهم الخطاب منه، وأما تلقي النبي الوحي من جبريل عليه السلام فهذا يتطلب استعدادا خاصا لا يتهيأ لغير نبي أو رسول ﷺ.

وخطاب الله تعالى عن طبيعة القرآن أنه وحي منَزَّل من عند الله جل جلاله، لا هو صنع بشر، يقول تعالى:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[١٠٤]،

فقد كان النبي ﷺ مخاطباً ومتحدياً والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المنزل، في بلاغته، وحسن نظمه وبيانه، ومعانيه وأحكامه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان والفصاحة، لعجزوا عن الإتيان بمثله، حتى ولو كان الجميع متعاونين متآزرين فيما بينهم لتلك الغاية، فإن هذا أمر غير مستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثيل؟! ثم أبان تعالى مضمون القرآن١٠٥.

فان هذا القران وهو العجزة والحجة الدائمة تحدى الله بها العرب كلهم فعجزوا عن الإتيان بمثله، وهم أهل فصاحة وبلاغة، والنبيﷺ واحد منهم وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب، وفيهم الشعراء والخطباء، وقادة البلاغة والبيان فحيث عجزوا فغيرهم من باب أولى، تحداهم به بأسلوب لاذع، مع الحكم عليهم بالعجز والقصور ولو اجتمع الإنس والجن، وتعاون الكل وبذلوا النفس والنفيس، وفي ذلك دعوة تحدٍّ تُبطل دعواهم، فليأتوا بمثله، وبالفعل لم يأتوا ولن يأتوا، وسقطت الدعوى١٠٦.

وفان الخطاب فيه التحدي ليس للمشركين أو الإنس والجن وحسب، بل حتى للنبي محمد ﷺ ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾١٠٧، إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه منك، فإذا كان النبي ﷺ نفسه مهدَّداً بحجب القرآن عنه، لأنه من عند الله، لا من عند نفسه، فهذا برهان آخر لأصحاب العقول اللماحة والذوق الرفيع، وقد أوتينا من العلم قليلا، ولو

شاء ربك لذهب بهذا القليل فعدنا إلى ظلام الجهل، وحماقة الجاهلية فمصدر العلم في كل ناحية هو القرآن الذي أوحى إليك، ولئن شاء ربك لأذهبه، ومحاه من الصدور والمصاحف، فلم يترك له أثرا، وبقيت كما كنت من قبل لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان١٠٨.

وكان جواباً على طلبات المشركين المتعددة المتعنتة، يعرفهم القرآن بطبيعة أنفسهم البخيلة قياساً إلى عطاء الله ورحمته، يقول تعالى ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠ ﴾[١٠٩]، فقد خاطب الله المشركين بواسطة النبي ﷺ فقل لهم: لو أنكم تملكون خزائن رحمة الله الرحمن الرحيم لبخلتم بها، وأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا بخيلا[١١٠].

وقول القائل:

ولو سُئل الناس الترابَ لأوشَكُوا ٠٠٠٠٠٠٠٠٠إذا قيل هاتوا أن يملُّوا ويَمنعوا [١١١].

فما بالكم تطلبون آيات بعد هذه الآيات! وأنتم لا تقومون بواجب الشكر لله الذي أنعم عليكم بكافة النعم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ ﴾[١١٢].[١١٣]

كما يقول بعد ذكر نعمه على المطيع والعاصي من عباده : ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾[١١٤].

انظر وتفكر أيها الصالح للخطاب في حكمتنا من تفضيلنا بعض عبادنا على بعض في عطاءاتنا من متاع الحياة الدنيا وزينتها، فهذا واقع مشهود لكل ناظر، ولكن معرفة الحكمة منه تحتاج الى تفكر سليم١١٥.

ويبدو كان الخطاب في هذه الآيات لنبيه ﷺ وتأيده بالحجج التي تبطل ادعاءات الأعداء، وهذا من الطبيعي أن يدافع الله تعالى عن نبيه ﷺ بأن يزوده بالبراهين التي ترد أباطيل المشركين، وتقمع شكوكهم وتَخَرُّصاتهم.

المطلب الثاني: الخطاب الثنائي بين طرفين.

كل ما ذكر في المبحث الأول هو الحديث عن الخطاب المختص بالخطاب الذي جاء في القران من طرف واحد، وهو الغالب والاكثر الذي تحدث فيه القران في السورة، أما الخطاب الثنائي، فهو جاء في موقعين اثنين قصيرين، متناظرين إلى حدّ كبير، ولا سيما في أن أحد الطرفين (إبليس– فرعون) متمرد للطرف الآخر، ومصيرهما واحد أيضاً وهو (الخسران المبين) أو الهزيمة، لا في الحوار وحده، بل في النتيجة أو المعركة الدائرة بين الحق والباطل،

وهذا العصيان أو الخلاف الشديد هو الذي أدى فنياً للتعبير عنه بشكل حوار ثنائي، يلتقي فيه الطرفان وجهاً لوجه، لمقارعة الحجة للفرية أو البدعة الضالة مباشرة .

أولاً: خطاب الله مع إبليس.

بدا الله تعالى خطابه مع ابليس مصرحا للملائكة ان يسجدوا لادم فانهم سجدوا كلهم الا ان ابليس بدا متعنتاً وممتنع من امر الله له بالسجود بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [١١٦].

في هذا الخطاب ينبه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم وأنه لما خلق الله آدم استكبر عن السجود له وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾، {قال} متكبرا: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ ، أي: من طين وبزعمه أنه خير منه لأنه خلق من نار، وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه[١١٧].

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿ قَالَ ﴾، بدا ابليس مخاطباً لله:﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه[١١٨].

وان السياق في هذا الخطاب يكشف لنا عن الأسباب الأصيلة لضلال الضالين، فيعرض هذا المشهد هنا، ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية، ويرون إبليس عدوهم وعدو أبيهم يتهددهم بها، عن إصرار سابق قديم! وقوله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ ، وهذا يعد حسدا من إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين! ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية، فيقول في تبجح :﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ، أترى هذا المخلوق الذي جعلته أكرم مني عندك؟

نجد في قوله: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾، فلأ ستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم[١١٩].

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية، عن حالته التي يكون فيها متصلا بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقا واحدا تسلكه بلا إرادة، فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب.

وتشاء إرادة الله أن يطلق خطابه لرسول ﷺ الشر والغواية الزمام، يحاول محاولته مع بني الإنسان: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ، اذهب فحاول محاولتك، اذهب مأذونا في إغوائهم، فهم مزودون بالعقل والإرادة، يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك:﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ ، مغلبا جانب الغواية في نفسه على جانب الهداية، معرضا عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان، غافلا عن آيات الله في الكون، وآيات الله المصاحبة للرسالات، ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾، أنت وتابعوك ﴿ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [١٢٠]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾.وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول، فهي المعركة الصاخبة، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل، وأحاطت بهم الرجال﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [١٢١].

وهذه الشركة تتمثل في أوهام الوثنية الجاهلية، إذ كانوا يجعلون في أموالهم نصيبا للآلهة المدعاة فهي للشيطان وفي أولادهم نذورا للآلهة أو عبيدا لها فهي للشيطان كعبد اللات وعبد مناة، وأحيانا كانوا يجعلونها للشيطان رأسا كعبد الحارث! كما تتمثل في كل مال يجبى من حرام، أو يتصرف فيه بغير حق، أو ينفق في إثم، وفي كل ولد يجيء من حرام، ففيه شركة للشيطان.

والتعبير يصور في عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة! وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها، ومنها الوعود المغرية الخادعة:﴿ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾، كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص، والوعد بالغنى من الأسباب الحرام، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة[١٢٢].

ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة، فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة

الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة! اذهب مأذونا في إغواء من يجنحون إليك، ولكن هنالك من لا سلطان لك عليهم، لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[١٢٣]، وانطلق الشيطان ينفذ وعيده، ويستذل عبيده، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن، فما له عليهم من سلطان. وهذا دليل على أن المعصوم من عصمه الله، وأن الإنسان بحاجة إلى عون الله جل جلاله.

في هذا المنظر الخطابي عدد من الإشارات والنواحي الإيديولوجية والتقنية :

١- فقد كان عداء الشيطان للإنسان، وتمرده في الوقت نفسه للرحمان .

٢- فقد كان الانسجام الفني والفكري بين هذا المشهد ومشهد مجادلة مشركي مكة للنبي محمد ﷺ، بدءاً باعتراضهم على طبيعته البشرية، واعتراض إبليس على طبيعة آدم (الطينية)، ومثل ذلك اعتراضهم على افتقار النبي ﷺ إلى (جنة من نخيل وعنب) (تفجير الأنهار) (بيت من زخرف) (الرقي في السماء) .

٣- وجدت في هذا المشهد الانسجام الفكري والفني بينه وبين مشهد خطاب النبيﷺ موسىعليه السلام مع فرعون أيضاً .

٤ – جاء في هذا المشهد التفاتان فنيان رائعان :

الالتفات الأول: الانتقال من مخاطبة الله لإبليس إلى مخاطبة الناس والمخلوقات أجمعين :﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾[١٢٤]، وهذا معلوم في الفن البشري، حين يلتفت أحد المتكلمين في الخطابية إلى غير الذي كان يخاطبه كالجمهور مثلاً .

الالتفات الثاني :قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾[١٢٥]، وهو كالالتفات الأول في الجمالية والتأثير، لكنه هذه المرة انتقال من خطاب الله لإبليس إلى خطاب النبي ﷺ ، وفي ذلك ما فيه من انتقال زماني ومكاني بعيدين، وما فيه من تثبيت للنبي ﷺ ، وتكريم له في الوقت نفسه، ولاسيما أن السورة تدور حول شخص النبي ﷺ.

ثانياً : خطاب بين موسىعليه السلام وفرعون.

فقد عرض القران الكريم في هذا الخطاب لقطات من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وبيان ما انتهوا اليه اذ اغرق الله عز وجل فرعون ومن خرج معه لقتال، بني اسرائيل الفارين من بقيادة موسىعليه السلام .

وفيه بيان ما قاله عز وجل لبني اسرائيل من بعد موسى عليه السلام، بأمر تكويني جعلهم به موزعين في شتى الارض، ثم يأتي بهم الى فلسطين لفيفاً، ليكون لهم علو مؤقت في الارض، ثم ليلاقوا مصيرهم المحتوم، بحسب سنة الله عز وجل فيهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ

فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ [١٢٦].

فقد خطاب الله تعالى فرعون واذا كنت ايها المتعنت شاكا في خبرنا في القران عن ايتائنا موسى عليه السلام تسع آيات كبيرات، فكذب بها فرعون وملؤه، وتبعتهم جنودهم في التكذيب، فاسأل بني اسرائيل عن هذا النبأ، فهذا من الامثلة الواقعية في الناس التي جعلتنا لا نستجيب لمطالب كبراء كفار قريش، بشأن اجراء آيات ماديات شاهدات للرسول ﷺ بصدقه في نبوته ورسالته، كما سبق ان قلنا في هذه السورة: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [١٢٧].

وقوله :﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ أي: في وقت ان جاء موسى عليه السلام فرعون وقومه بآياتنا التسع البينات، اعيد الضمير على الملاحظين ذهناً غير مذكورين لفظا، ويدل عليهم السياق.

وقوله:﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ، والظاهر من هذا الخطاب بين فرعون وموسى عليه السلام قد كان في أوخر مسيرة موسى عليه السلام الدعوية في مصر، وبعد ان اجرى الله عز وجل له الآيات التسع كلها، ولم يكن باستطاعة فرعون ان يتهم موسى عليه السلام بالجنود حينئذ، ولا ان يقول له جازما، انك مسحور، تؤثر عليك اعمال السحرة فتجعلك تتصرف تصرفات ليست صادرات عن اردتك الواعية، اذ وصل فرعون الى حالة استيقان تام بصدق موسى وهارون عليهما السلام، وانهما رسولان من رب العالمين، الا انه كان مستكبرا مكابرا معاندا جاحدا، فقال لموسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [١٢٨].وفي قوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

جاء في هذا الخطاب أوكد لك يا فرعون انك قد علمت كما ان اعلم ان هؤلاءِ الآيات التسع التي جرت في مصر خلال سنين، ما انزلها الا رب السماوات والارض بقدرته وحكمته، لتكون حججا وبراهين على اني واخي هارون رسولا مبعوثان اليكم، فلم تومنوا بها جحودا واستكبارا[١٢٩].

وفي قوله: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾. كانت عاقبة فرعون ومن خرج معه لقاتلوا بني اسرائيل، ويعيدوهم الى الذل والتسخير والاستعباد، ان الله بعظمة وربوبيته اغرقهم جميعاً[١٣٠].

وفي قوله: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

والذي ظهر لي من خلال الخطابات القرآنية المتعلقة ببني اسرائيل، ان هذه الآية تدل على قدر الله وقضائه في بني اسرائيل ابان اواخر وجودهم الماضي في فلسطين وجودا مقترنا بإفساد وعلو فيها، وقبيل حكم الرومان لها، اذ دخلت تحت سلطان الرومانيين ١٣١.

والقول الرباني الذي جاء في هذه الآية امر قدري قضائي بتشتيت بني اسرائيل في بلدان الارض كلها شرقها وغربها، واخراجهم الا قليلا منهم من ارض فلسطين.

والذي يبدو لي ان ظاهر اجتماع اليهود في هذا العصر في فلسطين من الشرق والمغرب، ومن كل بلاد الشتات، كان هذا تحقيق للوعد الرباني بان يأتي بهم لفيفاً، ليلاقوا مصيرهم المحتوم، ولم يجتمعوا مثل هذا الاجتماع قبله في تاريخهم.

الخطاب الثاني هنا آيتان وحسب! ومع ذلك فيهما من الدلالات ما فيهما :

١ – الانسجام بين تهم فرعون وتهم مشركي مكة للرسول :﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ ١٣٢.

٢ – الانسجام مع مجادلة الشيطان للرحمان من حيث الخلاف والعصيان وسوء المصير .

٣ – التعريض الفني الخفي غير المباشر .. بعناد مشركي مكة الذين يحسون صدق نبوة محمد ، كما أحسها فرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ١٣٣. (لقد علمتَ ما أنزلَ هؤلاءِ إلا ربُّ السماواتِ والأرضِ بصائرَ) .

٤ – المجانسة اللفظية الساخرة في جواب النبي موسى لفرعون : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ١٣٤. (إني لأظنُّكَ يا فرعونُ مثبوراً = إني لأظنُّكَ يا موسى مسحوراً) ، مجانسة في الصيغة والإيقاع ، وترشيح جميل لسوء العاقبة والمصير في الوقت نفسه.

ولا يفوتنا التعليق المعجز على المشهد الخطابي، الذي يختمه الله بنصر النبي موسى عليه السلام و بني إسرائيل أولاً ، وهو ترشيح لنصر النبي محمد ﷺ وصحبه ، ثم إرجاع الغالب والمغلوب إلى يوم القيامة ثانياً، أي إلى الله تعالى الذي له الأمر أولاً وآخراً.

الخاتمة

١- الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، و الكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا.

٢- باستقراء آيات القرآن الكريم، نجد أن الله تعالى قد وجَّه الخطاب لعموم الناس في غير موضعٍ من القرآن، وكلّ خطاب فيه له هدفه ومقاصده، ومجموع سياق هذه الآيات الواردة في خطاب النَّاس عشرون موضعًا، إلاَّ خمسةَ مواضع منها، ثلاثة منها سياق خطاب الله للنَّبي ﷺ لدعوة النَّاس إلى إتّباعه والإيمان برسالته.

٣- من خلال الخطابات القرآنية المتعلقة ببني إسرائيل، تدل على قدر الله وقضائه في بني إسرائيل إبان أواخر وجودهم الماضي في فلسطين وجودا مقترنا بإفساد وعلو فيها، وقبيل حكم الرومان لها، إذ دخلت تحت سلطان الرومانيين.

٤- في هذا الخطاب ينبه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم وأنه لما خلق الله آدم استكبر عن السجود له.

٥- في هذا الخطاب يوجه الله رسوله ﷺ إلى الاتصال به، واستمداد العون منه، والمضي في طريقه، يعلن انتصار الحق وزهوق الباطل.

٦- تعدد مستويات هذا الخطاب ، فهو حيناً يخاطب النبي ﷺ نفسه مباشرة لتزكيته وتثبيته، أو لتلقينه الحجج، وأحياناً يقصد إلى مخاطبة الصف المسلم أو المشركين.

٧- كان النبي ﷺ مخاطباً ومتحدياً والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المنزل، في بلاغته، وحسن نظمه وبيانه، ومعانيه وأحكامه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان والفصاحة، لعجزوا عن الإتيان بمثله، حتى ولو كان الجميع متعاونين متآزرين فيما بينهم لتلك الغاية، فإن هذا أمر غير مستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثيل؟! ثم أبان تعالى مضمون القرآن.

٨- ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية، عن حالته التي يكون فيها متصلا بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقا واحدا تسلكه بلا إرادة، فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب.

٩- فقد كان الانسجام الفني والفكري بين هذا المشهد ومشهد مجادلة مشركي مكة للنبي محمد ﷺ، بدءاً باعتراضهم على طبيعته البشرية.

هوامش البحث

[١] –سورة الإسراء آية :٨٨.

[٢] ––سورة الحجر آية :٩.

[٣] –سورة هود آية :١.

[٤] –سورة الإسراء آية :٨٨.

[٥] ––سورة الحجر آية :٩.

٦ – ينظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة/ الثالثة، (١٤١٤ هـ):٢٢٥مادة (سلب).

٧ –ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة:٤٤١/١،مادة(سلب).

٨ – دلائل الإعجاز ،عبد القاهر الجرجاني، قراءة و تعليق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي و مطبعة المدني، القاهرة ،(١٤٠٤ هـ): ٤٦٩ .

٩ – الإيقاع هو : (جماع الوسائل الصوتية المتقنة التي يستخدمها الشاعر – باختياره – لتدعيم الوزن ، و القافية ، و تحقيق الواقع الصوتي المتميز في القصيدة) ، النص الأدبي : تحليله و بناؤه : مدخل إجرائي ، د.إبراهيم خليل، دار الكرمل ، عمّان ، الطبعة الأولى ،(١٩٩٥م):

١٠ – منهاج البلغاء و سراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم و تحقيق : محمد الحبيب بن خوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة/الثانية،(١٩٨١م): ٣٦٤ .

١١ –ينظر: الأسلوبية : مدخل نظري و دراسة تطبيقية، د . فتح الله أحمد سليمان، الدار الفنية للنشر و التوزيع، القاهرة ،(١٩٩٠م):٣٠ .

١٢ – المقدمة، ابن خلدون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،(١٤٠٨هـ): ٥٧٠ .

١٣ –ينظر: لسان العرب: ٣٦٠/١، مادة (خطب).

١٤ –سورة ص آية:٢٣.

١٥ –سورة ص آية:٢٠.

١٦ –ينظر: معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر:٢٤٣/١، مادة(خطاب).

١٧ – كشاف اصطلاحات الفنون ، لطفي ع البديع المناوي، الهيسة العامة للكتاب، مصر، الطبعة الأولى،(١٩٧٢): ١٧٥/٢.

١٨ – الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت:٤٢٠، مادة:خطب.

١٩ – التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة/ الأولى،(١٤٠٣هـ –١٩٨٣م): ١٦٩.

٢٠ –ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) ، الطبعة التونسية ، دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس (١٩٩٧ م):١٥:٧.

٢١ –ينظر: البرهان في علوم القرآن، بَدْر الدِّينِ مُحَمَّد بْن عَبْدِ اللَّهِ بْن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة/ الأولى،(١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه:٩٥/٢، والإتقان في علوم القرآن،عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م):١٣٠/١.

٢٢ –سورة الإسراء آية:٢٦.

٢٣ –ينظر:أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، د. احمد عباس البدوي، الطبعة الأولى، دار عمار، عمان،(١٩٩٩م):٩٨ وما بعدها.

٢٤ –ينظر: الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة / الثانية ،(١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م):٢٠٣/١٠، و نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، تحقيق: محمد حسن إسماعيل – أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية،(٢٠٠٣/٠١/٣٠):٣٦٥.

٢٥ –سورة الإسراء آية:٦٠.

٢٦ –سورة الإسراء آية:٧٦.

٢٧ –سورة الإسراء آية:٨٠.

٢٨ –ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة/ الأولى،(١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م):٣/٣، و ١٨، وتفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة/ الثانية،(١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م):٥/٣.

٢٩ – سورة الإسراء آية:١.

٣٠ –سورة الإسراء آية:٤.

٣١ –نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة:٣٢٧/٤.

٣٢ – صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى،(١٤٢٢هـ.):٩٦/٦، رقم الحديث:(٤٧٣٩)، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله: {فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى}.

٣٣ – ينظر: معجم مقاييس اللغة:٢٢٤/٤، مادة: عتق.

٣٤ – سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة/الثانية،(١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م):١٦٥/٥، رقم الحديث:(٢٩٢٠)، أبواب فضائل القرآن عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة/ الأولى،(١٤١١ – ١٩٩٠):٤٧٢/٣.

٣٥ – ينظر: جامع البيان:٥٧٠/١٧، و نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٢٧٨/١١.

٣٦ – ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٢٧٨/١١.

٣٧ – سورة الإسراء آية: ٧٨ –٧٩– ٨٠ .

٣٨ – ينظر: الجامع لأحكام القران:٨٨/٥.

٣٩ – التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة /الثانية ،(١٤١٨ هـ):١٤٤/١٥.

٤٠ –ينظر: مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة/ الثالثة ،(١٤٢٠ هـ):٣٨٢/٢١.

٤١ – سورة الإسراء آية: ٧٣ – ٧٧ .

٤٢ –ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة/ الثالثة (١٤٠٧ هـ):٣٦٣/٢.

٤٣ – في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي،(المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر،(١٤١٢ هـ):٢٢٤٣/٤.

٤٤ – التفسير الواضح، الحجازي، محمد محمود، الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة/ العاشرة (١٤١٣ هـ):٣٨٩/٢.

٤٥ –سورة الإسراء آية: ٣٩.

٤٦ – سورة الإسراء آية: ٢٣ – ٣٨ .

٤٧ –ينظر: جامع البيان:٤٢٧/١٧.

٤٨ –ينظر: تفسير القرآن العظيم:٧٧/٥.

٤٩ –سورة الإسراء الآيات:٢٣–٢٤.

٥٠ -ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت،الطبعة/ الأولى ،(١٤٢٢ هـ):٤٤٧/٣.

٥١ -ينظر: الكشاف:٦١٤/٢.

٥٢ -ينظر: مفاتيح الغيب:٣١٩/٢٠.

٥٣ -ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة/ الأولى، تاريخ النشر،(١٩٩٨):٣٦٨/٣.

٥٤ – سورة الإسراء آية: ٦١.

٥٥ – سورة البقرة آية: ٣٠.

٥٦ -ينظر: مفاتيح الغيب:٣٦٥/٢١.

٥٧ – سورة الإسراء آية: ٦١.

٥٨ – سورة النحل آية: ٤٠.

٥٩ -ينظر: الكشاف:١٢٦/١.

٦٠ – مجلة البحوث الإسلامية – مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المؤلف: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، عدد الأجزاء: ٨٨ جزءا:٨.

٦١ -ينظر: جامع البيان: ١/ ١٨٠ .

٦٢ – سورة الإسراء آية: ٦١.

٦٣ -ينظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)،تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر –بيروت، الطبعة،(١٤٢٠ هـ):٦٦/٧.

٦٤ – سورة الإسراء آية: ٤٥–٤٨.

٦٥ -ينظر: جامع البيان:٤٥٢/١٧، والتفسير الوسيط للزحيلي، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة / الأولى – ١٤٢٢ هـ):١٣٥٣/٢.

٦٦ -ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة/ الأولى،(١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م): ٤٥٩.

٦٧ -ينظر: مفاتيح الغيب:٣٢٨/٢٠.

٦٨ – سورة الإسراء آية: ٨٥.

٦٩ -ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:٤٦٦.

٧٠ – سورة الإسراء آية: ٩٠–٩٣.

٧١ – سورة الإسراء آية: ٩٠.

٧٢ –ينظر: التفسير الواضح:٣٩٥/١٥، وفتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة/ الأولى،(١٤١٤ هـ).: ١٦٦/١٥.

٧٣ – سورة الإسراء آية: ١٠٧.

٧٤ – سورة الإسراء آية: ٨٨.

٧٥ – سورة الإسراء آية: ٨٨.

٧٦ –ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:٣٣٧/١، والتحرير والتنوير:٢٣٢/١٥.

٧٧ – سورة الإسراء آية: ١٤.

٧٨ –ينظر: جامع البيان:٤٠١/١٧.

٧٩ –ينظر: تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة/ الأولى، (١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م):٢٣/١٥.

٨٠ – سورة الإسراء آية: ٦٦-٦٩.

٨١ –ينظر: الكشاف:٦٨٠/٢.

٨٢ –سورة الأنعام آية: ٦٥.

٨٣ –سورة الشمس الآيات: ١٤ – ١٥.

٨٤ –ينظر: التفسير الواضح:٣٨٥/٢.

٨٥ – سورة الإسراء آية: ٤-٨.

٨٦ –ينظر: التفسير الواضح:٣٥٣/٢.

٨٧ –ينظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة/ الخامسة،،(١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م):١٧٥/٣.

٨٨ –ينظر: التحرير والتنوير:٢٨/١٥.

٨٩ – سورة الإسراء آية: ٤-٨.

٩٠ –ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٠/ ١٥٨.

٩١ – سورة الإسراء آية: ١

٩٢ – سورة الإسراء آية: ١٠٨

٩٣ – سورة الإسراء آية: ٤

٩٤ – سورة الإسراء آية: ٢٣ – ٣٨ .

٩٥ – سورة الإسراء آية:٥٦–٥٧.

٩٦ – ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٩٩٠ م): ٤٠٧/٨، والتفسير المنير:١٠٣/١٥.

٩٧ – سورة الإسراء آية:٥٠–٥٢.

٩٨ – ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة/ الأولى،(١٤١٨ هـ):٢٥٣/٣.

٩٩ –ينظر: نفس المصدر السابق٢٥٣/٣.

١٠٠ –جامع البيان :٦١٨/١٤.

١٠١ – ينظر: الجامع لأحكام القران:٢٧٤/١٠، وفي ظلال القران:٢٢٢٤/٤.

١٠٢ – سورة الإسراء آية:٩٤–٩٦.

١٠٣ –ينظر: زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة/ الأولى،(١٤٢٢ هـ):٥٥/٣.

١٠٤ – سورة الإسراء آية:٨٨.

١٠٥ –ينظر: التحرير والتنوير:٢٠٢/١٥.

١٠٦ –ينظر: التفسير الواضح:٣٩٣/٢.

١٠٧ – سورة الإسراء آية:٨٦.

١٠٨ –ينظر: الكشاف:٦٩٤/٢.

١٠٩ – سورة الإسراء آية:١٠٠.

١١٠ –ينظر:جامع البيان:٥٦٣/١٧.

١١١ – أبيات مختارة تشتمل على: عقيدة، نصائح، مواعظ، وصايا، حكم، أمثال، أدب، عبد الله بن محمد البصيري، الناشر: مطابع الحميضي، الطبعة/الأولى،(١٤٢٢هـ/٢٠٠١م):٦٤.

١١٢ –سورة العاديات آية:٦.

١١٣ –ينظر: مفاتيح الغيب:٤١٣/٢١

١١٤ – سورة الإسراء آية:٢٠–٢١.

١١٥ – الجامع في أحكام القران: ١٠/ ٢٣٥

١١٦ – سورة الإسراء آية:٦١–٦٥.

١١٧ – ينظر: مفاتيح الغيب:٣٦٦/٢١.

١١٨ – ينظر: الجامع لأحكام القرآن:١٠/٢٨٦.

١١٩ –ينظر: تفسير القران العظيم:٥/١٢٤.

١٢٠ –ينظر: زاد المسير:٣/٦٣.

١٢١ –ينظر: فتح القدير:٣/٣١١.

١٢٢ –ينظر: الجامع لأحكام القرآن:١٠/٢٨٦.

١٢٣ –ينظر: تيسير الكريم الرحمن:١/٤٦١.

١٢٤ –سورة الإسراء آية:٦٤.

١٢٥ – سورة الإسراء آية:٦٥.

١٢٦ – سورة الإسراء آية:١٠١–١٠٤.

١٢٧ –ينظر: مفاتيح الغيب:٢١/٤١٤.

١٢٨ –ينظر: في ظلال القران:٤/٢٢٥٢.

١٢٩ –ينظر: التفسير المنير:١٥/١٨١.

١٣٠ –ينظر: الجامع لأحكام القران:١٠/٣٣٥.

١٣١ –ينظر: نفس المصدر السابق.

١٣٢ – سورة الإسراء آية:٤٧.

١٣٣ – سورة الإسراء آية:١٠٢.

١٣٤ – سورة الإسراء آية:١٠١–١٠٢.

المصادر والمراجع

١. الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، د . فتح الله أحمد سليمان ، الدار الفنية للنشر و التوزيع ، القاهرة ،(١٩٩٠م).

٢. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م).

٣. أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة/ الثانية، (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م)

٤. أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، د. احمد عباس البدوي، الطبعة الأولى، دار عمار، عمان،(١٩٩٩م).

٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة/ الأولى،(١٤١٨ هـ).

٦. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة/ الخامسة،،(١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٧. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي،(المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة،(١٤٢٠ هـ).

٨. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٩. البرهان في علوم القرآن، بَدْر الدِّينِ مُحَمَّد بْن عَبْدِ اللَّهِ بْن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة/ الأولى،(١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

١٠. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي،(المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الطبعة التونسية، دار النشر:دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس (١٩٩٧ م).

١١. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني،(المتوفى: ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى، (١٤٠٣هـ -١٩٨٣م).

١٢. التفسير الواضح، الحجازي، محمد محمود، الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة/ العاشرة (١٤١٣ هـ).

١٣. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني،(المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٩٩٠ م).

١٤. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة/ الثانية،(١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م).

١٥. وتفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي،(المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة/ الثانية،(١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م).

١٦. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي،(المتوفى: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة/ الأولى، (١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م).

١٧. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة /الثانية ،(١٤١٨ هـ).

١٨. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة/ الأولى، تاريخ النشر:(١٩٩٨).

١٩. التفسير الوسيط للزحيلي، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة / الأولى - ١٤٢٢ هـ).

٢٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة/ الأولى،(١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م).

٢١. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة / الثانية ،(١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م).

٢٢. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة/ الأولى،(١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م).

٢٣. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قراءة و تعليق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي و مطبعة المدني، القاهرة ،(١٤٠٤ هـ): ٤٦٩ .
٢٤. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة/ الأولى،(١٤٢٢ هـ).
٢٥. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة/ الأولى،(١٤٢٢هـ).
٢٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري،(المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢٧. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة/الثانية،(١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م).
٢٨. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني،(المتوفى: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة/ الأولى،(١٤١٤ هـ).
٢٩. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي،(المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر (١٤١٢ هـ).
٣٠. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة/ الثالثة، (١٤١٤ هـ).
٣١. كشاف اصطلاحات الفنون، لطفي ع البديع المناوي، الهيسة العامة للكتاب، مصر، الطبعة/ الأولى،(١٩٧٢).
٣٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة/ الثالثة (١٤٠٧ هـ).

٣٣. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت.

٣٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة/ الأولى ،(١٤٢٢ هـ).

٣٥. مجلة البحوث الإسلامية – مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المؤلف: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، عدد الأجزاء.

٣٦. والمستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة/ الأولى،(١٤١١ه-١٩٩٠م).

٣٧. مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة/ الثالثة ،(١٤٢٠ هـ).

٣٨. المقدمة، ابن خلدون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،(١٤٠٨هـ).

٣٩. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.

٤٠. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر.

٤١. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.

٤٢. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم و تحقيق : محمد الحبيب بن خوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة/الثانية،(١٩٨١م).

٤٣. نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي،(المتوفى: ١٣٠٧هـ)، تحقيق: محمد حسن إسماعيل – أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية،(٢٠٠٣/٠١/٣٠).

٤٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.